كأنه ولىّ حميم

من رحمة الله تعالى بالمسلمين أن أنزل عليهم كتابه العزيز هدى وموعظة ورحمة بلغة يعلمها العرب لتستقيم حياتهم وحفظه لهم بقدرته حتى يكون حجة لهم وعليهم ويظل برهانا على الحقيقة وفرقانا بين الحق والباطل ووقاية من أساطير الملحدين وافتراءات المفسدين. وإن على العرب فريضة كبرى ربما لا يتحملها المسلمون الآخرون بنفس المقدار، ألا وهى تدبر القرآن الكريم والتفكر فى معانيه وتوصيلها لجميع المسلمين ليتذكروا جميعا هداه وتعاليمه المحكمة خلال سيرهم فى الحياة. قال تعالى فى بداية سورة فصلت [حم - تنزيل من الرحمن الرحيم - كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون] وفى هذا المقال أحاول التأمل فى معنى آيتين أخريين من نفس السورة الكريمة، قال تعالى [ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم - وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم] ويتساءل بعض الناس لماذا لا ينقلب العدو صديقا عند الإحسان إليه كما يتراءى لهم من معنى الآية وكما قال بعض المفسرون فى معناها خاصة وأن "إذا" الفجائية تفيد اليقين، حتى أن رجلاً قال: يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعُوني، وأحسن إليهم ويُسيئون إليّ ، وأحلمُ عنهم ويجهلون عليّ! فقال :(لئن كُنتَ كما قلتَ فكأنما تُسفهم المل، ولا يزالُ معك من الله تعالى ظهيرٌ عليهم ما دُمتَ على ذلك) رواه مسلم.

وأنا أظن - والله تعالى أعلم - أن هذا المعنى (انقلاب العدو إلى صديق أو ولى) ليس متسقا مع كلمات وتركيب الآية لما سيأتى من الأسباب. إن التشبيه بشىء ينفى التطابق بينهما ويثبت ارتباطا يعرف من السياق، والتشبيه قد يكون بإسم أو صفة، وإذا كان التشبيه باسم مثل قوله تعالى [خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر] ينفى كون الناس جرادا بكل تأكيد، ولكن يثبت ارتباطا بين الناس عند الحشر من القبور إلى الحساب يوم القيامة وبين الجراد الذى نراه فى الدنيا، ووجه الارتباط يعرف من السياق أو يجتهد القارئ ليعرفه وغالبا ما يكون وجه الارتباط فى صفة وفى هذه الآية قد تكون الصفة المقصودة هى الانتشار والكثرة وسرعة السير وما إلى ذلك.

وأما التشبيه بصفة فهو ينفيها عن المشبه غالبا لأن الصفة غير الاسم فهى تكتسب وتزول، فإذا أردت أن أصف رجلا بأنه شجاع لن أقول كأنه شجاع، فالتشبيه ينفى عنه الشجاعة ويثبت ارتباطا بين الرجل والشجاعة كأن يكون متظاهرا بالشجاعة مثلا، أو أن يكون أتى فعلا من أفعال الشجاعة بدون قصد منه، أو ما إلى ذلك على حسب سياق الكلام وفى القرآن تشبيه بصفة مثل [يسألونك كأنك حفى عنها قل إنما علمها عند الله] أى أن الناس كانوا يسألون الرسول عليه الصلاة والسلام عن موعد يوم القيامة كأن الرسول يعرفه أو يلح على الله فى معرفته والتشبيه ينفى عن الرسول هذه الصفة (حفى عنها) قطعا ووجه الارتباط كثرة سؤال الناس لأن فى غالب الأمر يسأل الناس من يعلم إجابة السؤال وليس من لا يعلمه. ويلاحظ أن وجه الارتباط هنا لا يثبت شيئا من الصفة المشبه بها ولا يغير من نفيها عن طريق التشبيه، فشبيه الشىء مختلف عنه وليس هو نفسه.

ومن هذه النقطة نرجع للآية محل التأمل فى هذا المقال [كأنه ولى حميم] فولى وحميم صفتان مثل حفى، والتشبيه بهما يعنى - فى الغالب - نفيهما عن صاحب العداوة وليس إثبات أى منهما لأنهما صفتان تكتسبان وتزولان ولو كان المراد إثباتهما لما وجدت أداة التشبيه "كأنه"، والتشبيه بصفة يعنى نفيها فى الغالب كما أوضحت فى الأمثلة السابقة وولى من الولاية وهو الحليف الناصر وهو ضد العدو (قول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله) وحميم أى قريب وصديق، ومن هنا لا أجد فى الآية نفيا للعداوة فهى تثبت العداوة أولا فى (بينك وبينه عداوة) ثم تثبت العداوة ثانيا فى (كأنه ولى) عن طريق نفى الولاية بالتشبيه بها. هنا يبقى السؤال الأصعب وهو: إذا كان التشبيه بالولاية ينفيها فأين وجه الشبه أو وجه الارتباط بين هذا العدو وبين الولى ومن غير المرجح أن يكون وجه الشبه هو التظاهر بالولاية والمحبة وإبطان العداوة لأن ذلك أسوأ من المعاداة الكاملة وهو ما لا يتسق مع قوله تعالى [وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم].

يقول الشيخ ابن عاشور رحمه الله إن وجه الشبه هو المصافاة والمقاربة وهو معنى متفاوت الأحوال فإن لم يصبح وليا حميما فقد زالت بعض العداوة أو كثير منها وخالطته شوائب المحبة ويختلف مقدار ذلك من شخص لشخص وموقف لموقف. قلت ربما يكون وجه الشبه غير ذلك، فقد يستمر العدو فى معاداته وكيده، ولكن دفع سيئته بالحسنة والصبر على ذلك يحول الله كيده وأذاه وشره إلى خير ونفع وتوفيق للمحسن، فقد يوقعك العدو فى مأزق لو لم تقع فيه لوقعت فى ما هو أسوأ منه، وقد يفوت عليك عدوك ما تظنه خيرا ثم يتبين لك بعد ذلك أنه شر، فإحسانك وصبرك يستجلب ولاية الله لك التى هى أعظم ولاية، وإساءته تستجلب ولاية الشيطان له وهى أحقر ولاية، وبينما يظل عدوك طوال حياته يكيد عليك ويؤذيك فإن الله القوى المسيطر يحول كيده عليك فيكون لك، ويحول شره إلى خير، وأذاه إلى نفع، ولا يمكنك قطف الثمار إلا بالصبر وعدم الانخداع بظاهر الأمور، والثقة بالله. قال تعالى [قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير - تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب]

والله تعالى أعلم

أمين علام 5 يوليو 2014